﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدُّخان: 25 - 29]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَن ركب موجَ الطُّغيان، وعلا على المَلِك الدَّيّان؛ فعاقبتُه خزيٌ وجزاؤه خُسران

لمّا أسرى موسى بالمؤمنين؛ طاعةً لربِّ العالمين؛ وفتحَ المولى لهم البحرَ بباهر قدرته، وأمسكَ ماءه كالجدران بقاهرِ عظمتِه، فعبَروه تاركين إيّاه بعد طلوعهم منه على حالته؛ تَبِعهم عُبّاد الشَّيطان بما فاض عليهم مِن شقاوته؛ فأغرقَهم سبحانه جميعًا بعزَّته؛ وأخبر سبحانه أنَّه قد أورث بساتينَهم الباهرة، وقصورَهم الفاخرة، وجميعَ أرضهم العامرةِ الزّاخرةِ لأقوام آخرين بما له مِن تمام السَّطوة والمقدرة، ولمّا كان الإهلاك يوجِب أسفًا وحسرةً على المهلَكين؛ أخبر سبحانه أنَّهم غيرُ متحسَّرٍ عليهم لا في الأوَّلين ولا في الآخرين، وما كانوا عنِ العقوبة مِنَ المؤخَّرين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٖ﴾: أصلُ (عين) يدلُّ على عُضوٍ به يُبصَر ويُنظَر[2]، العين: الجارحةُ التي هي حاسَّة البصر والرُّؤية، وهي مؤنَّثة، والجمع: أعْيُن وعيون، ويقال لذي العين، وللمُراعي للشَّيء: عين؛ لأنَّه يَنظر إليه ويرعاه بعينه، وفلان بعيني؛ أي: أحفظُه وأُراعيه[3]، والعين: أن تصيب الإنسانَ بعين، وعانَ الرَّجُل فلانًا يَعينُه عينًا إذا أصابه بالعين، فهو عائن، والمصابُ بالعين مَعِين[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 27/ 18 - 29، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(3) الراغب، المفردات: (عين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عين).

ويقال لمَنْبع الماء الذي يخرج منه الماء، وينبع مِنَ الأرض: عَيْنٌ تشبيهًا بالعين لِما فيها مِنَ الماء، وجمعه: عُيون وأعْيُن، ومِن عين الماء اشتُقَّ: ماءٌ مَعِين؛ أي: ظاهر للعيون[1]، ومِن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾؛ أي: الخلجانُ الخارجةُ مِنَ النِّيل، فشبَّهها بالعيون[2]، وغلبَ الأعينُ في الجارحة، والعيون في النَّبع.

2) ﴿وَزُرُوعٖ﴾: أصلُ (زرع) يدلُّ على تنمية الشَّيء[3]، يقال: زَرَع الحَبَّ يزرَعُه زَرْعًا وزِراعَة: بَذَرَه، والزَّرع: طرحُ البَذْر في الأرض، والزَّرعُ أيضًا: الإنباتُ، وحقيقةُ هذا تكون بالأمور الإلهيَّة دون البشريَّة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]، فنسبَ الحرثَ إليهم، ونفَى الزَّرعَ عنهم، ونسبَه إلى نفسه ﷻ، والزَّرعُ في الأصل مصدرٌ، وأُطلِق أيضًا على المزروع، وهو واحد الزُّروع، وقد غلب على البُرِّ والشَّعير، وموضِعُه مَزْرَعَة ومُزْدَرَع، ويقال: زرع الله ولدَك، تشبيهًا بذلك؛ أي: أنبته الله وجَبَرَه[4].

3) ﴿وَمَقَامٖ﴾: أصلُ (قَوَم) يدور حول معنى الانتصابِ أوِ العزم على الشَّيء[5]، فالقِيامُ: نقيضُ الجلوس، قام يقوم قيامًا، فهو قائمٌ، وجمعُه قِيام، وأقام بالمكان إقامةً ومُقامًا: لَبِث، وأقام الشَّيءَ: أدامه، منه قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][6]، وكلُّ مَن ثبت على شيءٍ وتمسَّكَ به فهو قائمٌ عليه، ويُقال لمَن لم يُطِق فعلَ شيء، ولم يقدر عليه: لم يَقُم به، وقِوامُ الأمر: نِظامُه وعِمادُه، وقِوامُ كلِّ شيء ما يقوم به الشَّيء، أي: يَثْبُت، كالعِماد والسِّناد: لِما يُعْمَد ويُسْنَد به[7]، ومنه قِوام الحقِّ، وقِوام الدِّين.

وقام فلانٌ مقامَ فلان: إذا نابَ عنه، والمقامُ يكون مصدرًا، واسمَ مكانِ القِيام، وزَمانِه[8]، وقوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾؛ أي: مجلسٌ شريف، ومنازلُ حسنة[9].

---

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عين).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 72/ 5.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زرع).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (زرع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قوم).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 660، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 101، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 62.

4) ﴿وَنَعۡمَةٍ﴾: أصلُ (نعم) يدلُّ على ترفُّهٍ وطِيب عَيشٍ وصلاح[1]، نَعِم يَنعَم نَعمةً، فهو نعيمٌ بيِّنُ المَنْعَم[2]، والنِّعمة: الحالة الحسنة، مِن أنعمَ اللّه عليه يُنعِمُ إنعامًا ونِعمة، والنَّعمة: التَّنعُّمُ، وحُسنُ العيش وغضارتُه، والنِّعمةُ للجنس، تقال للقليل والكثير، وجمع النِّعمة: النِّعَم والأَنْعُم، والإنعام: إيصالُ الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلّا إذا كان الموصَل إليه مِن جنس النّاطقين، والنَّعماء بإزاء الضَّراء، والنَّعيم: النِّعمة الكثيرة، والتَّنعُّم: التَّرفُّه، وتنعَّم: تناولَ ما فيه النِّعمةُ وطيبُ العيش، يقال: نعَّمهُ تنعيمًا، فتنعَّم: جعلهُ في نعمةٍ؛ أي: لين عيشٍ وخِصب[3].

وقوله تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متعة الحياة ولذاذتُها، ولين العيش وغضارتُه[4].

5) ﴿فَٰكِهِينَ﴾: أصلُ (فكه) يدلُّ على طِيبٍ واستطابة[5]، والفاكهة: هي الثِّمار كلُّها، وأجناسها: الفواكه، والفُكاهَة: حديث ذوي الأُنس، وهو المزاح، يقال: فكَّهتُ القومَ تفكيهًا بالفاكهة، وفاكَهْتُهم مُفاكَهةً بمُلَح الكلام والمزاح[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة: 65]؛ أي: تتعاطَوْن الفُكاهة، وقيل: تتناولون الفاكهة، وقيل: تتعجَّبون وتندمون، وتفكَّه مِن كذا: تعجَّب وتندَّم، والفَكِه: الأشِر البَطِر، وقوله تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾، قُرئت: (فَكِهِينَ)، بمعنى: أشِرين بَطِرين، وعلى قراءة: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ فهي بمعنى: ناعمين معجَبين بما آتاهم اللّه، وتفكَّهتُ بالشَّيء: تمتَّعتُ به[7].

6) ﴿بَكَتۡ﴾: أصلُ (بكى) يدلُّ على خروج المائع مِن جوف الشَّيء قليلًا قليلًا بنحوٍ مِنَ الاعتصار[8]، بكى يبكي بُكًى وبكاءً وهو باكٍ، فالبكاءُ: سَيلانُ الدَّمع والصُّراخُ عن حزنٍ لُمصابه[9]، فالبكاء بالمدِّ: إذا أردتَ الصَّوتَ الذي يكون مع البكاء، والبُكى بالقصر

(1) ابن فارس، المقاييس: (نعم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نعم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، وابن عطية، المحرر الوجيز: 73/ 5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكه).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فكه).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فكه).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بكى).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بكى).

يقال إذا أردتَ الدُّموعَ وخروجَها، وكان الحزن أغلبَ، وجمع الباكي: باكون وبُكِيّ، وبكيتُه وبكيتُ عليه بمعنًى واحد: إذا بكيت عليه، وأبكيتُه إذا صنعت ما يحملُه على البكاء[1].

7) ﴿مُنظَرِينَ﴾: أصلُ (نظر) يدلُّ على تأمُّل الشَّيء ومعاينته، نظَرَ ينظُرُ نَظَرًا، والنَّظر: حسُّ العين[2]، وهو تقليبُ البصر أو تأمُّلُ العين والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيته، وقد يراد به التَّأمُّل والفحص، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلة بعد الفحص، وهو الرَّويَّة، يقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُر؛ أي: لم تتأمَّلْ ولم تتروَّ[3]، واستعمالُ النَّظر في البصر أكثرُ عند العامَّة، وفي البصيرة أكثرُ عند الخاصَّة، ونظرتَ إلى كذا: مددتَ طَرْفَك إليه، رأيتَه أو لم تَرَه، ونظرتُ في كذا: إذا رأيتُه وتدبَّرته، والنَّظرُ: الانتظار، يقال: نظرتُه وانتظرته وأنظرته؛ أي: أخَّرتُه[4]، ومعنى: ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ أي: مؤخَّرين وممهَلين[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سلبُ النِّعم وإنزالُ النِّقم من سنن الله لمن لم يستقِم

يُبيِّنُ المولى ﷻ في هذه الآيات سوءَ مآل فرعونَ وقومِه بعد إهلاكه إيّاهم بالغَرَقِ والتَّدمير مستعمِلًا ﴿كَمْ﴾ الخبريَّةَ لإفادة التَّكثير والتَّهويل لِما ترك هؤلاء المشركون بعد الغَرَقِ مِن بساتينَ كثيرةِ الأشجار ناضرةٍ، وأنهارٍ مِنَ الماء جاريةٍ، وزروعٍ نَضِرَةٍ متنوِّعةٍ، ومجالسَ حسنَةٍ مزخرفةٍ، وعيشةٍ مُترَفَةٍ كانوا فيها متنعِّمين.

كذلك يفعل اللّهُ بِمَنْ كذَّب رُسُلَه وخالف أمره واتَّبع هواه، وكذلك يحوِّل سبحانه النِّعمةَ لقومٍ آخرين مِن بني إسرائيل بعد هلاكِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) الراغب، المفردات: (نظر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 139، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 101.

فرعونَ وقومه هلاكًا مُدَمِّرًا، فلم تحزن عليهم السَّماءُ ولا الأرضُ لحلول هذا الهلاكِ بهم، ولم يكونوا مؤخَّرين لتوبةٍ أو تدارُكِ تقصيرٍ احتقارًا لهُم لهَوانِ شأنهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

الفصلُ للاستئناف؛ لبيان عاقبةِ المعاندين الأجلاف

فُصِل قولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه "استئنافٌ ابتدائيٌّ مسوقٌ للعِبرة بعواقب الظّالمين المغرورين بما هُم فيه مِنَ النِّعمة والقوَّة، غرورًا أنساهُم مراقبةَ اللّه فيما يُرضيه، فموقعُ هذا الاستئنافِ موقعُ النَّتيجة مِنَ الدَّليل أوِ البيان مِنَ الإجمال؛ لِما في قوله: ﴿*وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: 17] مِنَ التَّنظير الإجماليِّ"[2].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿كَمْ﴾ الخبريَّة:

رغمَ كثرةِ ما تركوا؛ لم ينفعهُم حين هلكوا

﴿كَمْ﴾ اسمٌ لعددٍ كثيرٍ مبهَم[3]، وهي هنا خبريَّةٌ للتَّكثير والتَّهويل؛ أي: ما أكثرَ ما ترك هؤلاء المغرَقون خلفَهم مِن بساتينَ ناضرةٍ، وعيونٍ يخرج منها الماء النَّمير، وزُروعٍ كثيرة متنوِّعة، ومحافلَ ومنازلَ كانت مُزيَّنةً بألوانٍ مِنَ الزِّينة والزَّخرفة، وتنعُّمٍ وترفٍّه كانوا فيه يتلذَّذون[4].

فهذا بيانٌ لما خلَّف هؤلاء الهالكون غرَقًا، وهو شيءٌ كثيرٌ أفاضَهُ اللّه عليهم مِن فضله، فما زادهم ذلك إلّا طغيانًا وكفرًا، وها هُم أولاء قد خلَّفوه وراءهم، يعيش فيه غيرُهم، ويَنعَم به سواهم، فما أغنى عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنَ اللّه مِن شيء[5]!

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231 - 232، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المنتخب، ص: 735.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(3) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 109، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 138.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 126.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 198.

بلاغةُ المجاز في استعمال التَّرك للدَّلالة على المفارَقة:

التَّعبيرُ بترك الأملاك مؤذنٌ بالفناء والإهلاك

أصلُ التَّركِ: التَّخليةُ عنِ الشَّيء[1]، وتَرَكَ الشَّيءَ: رفضَه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا[2]، وحقيقتُه: "إلقاءُ شيء في مكان منتَقَل عنه إبقاءً اختياريًّا، ويُطلَق مجازًا على مفارقةِ المكان والشَّيءِ الذي في مكانٍ غلبةٍ دون اختيارٍ، وهو مجازٌ مشهورٌ؛ يقال: تركَ الميّتُ مالًا، ومنه سمِّي مخلَّف الميّت: تَرِكَةً وهو هنا مِن هذا القبيل"[3].

بلاغةُ الإيجاز بين ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾، و﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾:

الإيجازُ لبيانِ الحال، والتَّحذيرِ مِن مغبَّة المآل

بين قولِه تعالى: ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾ إيجازٌ بحذف جملٍ كثيرةٍ دلَّ عليها قوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾، فالفعل ﴿تَرَكُواْ﴾ مؤذِنٌ بأنَّهم أُغرِقوا وأُعدِموا، وذلك مقتضٍ أنَّ ما أمرَ اللّه تعالى به موسى عليه السلام مِنَ الإسراء ببني إسرائيل وما معه مِن اتِّباع فرعونَ إيّاهم، وانفلاقِ البحر، وإزلافِ بني إسرائيل، واقتحامِ فرعون بجنوده البحرَ، وانضمامِ البحر عليهم قد تمَّ، ففي الكلام إيجازٌ بحذف جُملٍ كثيرة يدلُّ عليها ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾[4].

والغرضُ مِن هذا الإيجاز هو الاختصارُ مع بيان حالِ الفعلِ؛ وهو إجبارُهم على ترك ما كانوا أُعطوا مِن أموالٍ وخيراتٍ متعدِّدة الأصناف والأنواع[5].

نكتةُ عطف الزُّروع والمقام الكريم كلٍّ على سابقه:

غضبَ عليهم العظيم؛ فحرمَهم كلَّ أشكال النَّعيم

عطفُ الزُّروعِ والمقامِ الكريم كلٍّ على سابقه؛ للإشعار بأنَّه يوجد تغايرٌ بين الجملتين مع اتِّحادهما في مسألة الحرمان؛ فالجنّاتُ ليست هي التي يقوم أودُ الحياة بما فيها مِنَ الأشجار والثِّمار

(1) ابن فارس، المقاييس: (ترك).
(2) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ترك).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 9/ 856.

والفاكهة، وإنَّما الزُّروعُ التي هي حَبُّ الحصيد، والتي منها الخبزُ والطَّعام والغذاء، وعليها وبها تقوم حياةُ النّاس؛ فالآيةُ هنا تُحَدِّث عن سواد الشَّعب، وأفناءِ النّاس، وتنزلُ من طبقةٍ تمتلكُ الجنّاتِ والعيونَ إلى طبقةٍ تمتلكُ الزُّروعَ والمقام الكريم[1].

نكتةُ تنكير (زُروعٍ)، ودلالةِ مجيئها جمعًا:

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ﴾ لإفادة معنى التَّكثير، وجُمِعت لتأكيد ذلك، وهذا التَّكثيرُ مناسبٌ لمعنى الزُّروع؛ إذ إنَّ "الزَّرع قد غلبَ على البُرِّ والشَّعير، وجمعُه زُروع، وقيل: الزَّرع: نباتُ كلِّ شيء يُحرَث"[2].

التَّنكيرُ مع الجمع للتَّكثير؛ إشارةً إلى ما كانوا فيه مِن خيرٍ وفِير

فهذه الكثرة دليلٌ على ما كان فيه القومُ مِنَ النِّعمة والخصب والعيش الرَّغيد، فلمّا كفروا أُهلِكوا، وورثَ غيرُهم ما كانوا فيه، وتلك سُنَّة الله التي قد خلت في عباده!

نكتةُ تنكير (مَقامٍ)، ومعنى المجاز فيه، ودلالةِ وصفه بـ﴿كَرِيمٍ﴾:

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ﴾ لإفادة معنى التَّعظيم؛ لأنَّه مذكورٌ في سياق مدحِ ما كان القوم فيه مِنَ النِّعمة، وهو ممّا يُلمَحُ فيه علوُّ الشَّأن، لا كثرةُ الكَمِّ والمقدار، فهو بمعنى التَّعظيم أليَقُ، والتَّعظيمُ به ألصَقُ.

التَّنكيرُ للتَّعظيم؛ زيادةٌ في بيان ما حلَّ بهم مِنَ الحسرة والعذاب الأليم

والمَقام - بفتح الميم -: مكانُ القيام، والقيامُ هنا مجازٌ في معنى التَّمكُّن مِنَ المكان، والمراد به: المساكنُ والدِّيار والأسواق ونحوها ممّا كان للهالكين في مدينتهم العامرة[3]، وليس بلازم أن يكون قصورًا كقصور الخاصَّة، وإنَّما هو مسكنُ آدميٍّ، فحتَّى عامَّةُ النّاس منهم كانوا يعيشون حياةً آمنةً مطمئنةً إلّا أنَّهم كانوا أشِرينَ بَطِرينَ فحُرِموا ذلك كلَّه[4]!

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زرع).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.
(4) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.

ووُصِفَ المقامُ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ للدَّلالة على حسنِه وشرفِه في بابه[1]، "والكريمُ مِن كلِّ نوع: ما يَجمع فضائلَه، وهو صفةٌ لكلِّ ما يُرضي في بابه، يقال: وجهٌ كريمٌ؛ أي: مَرضيٌّ بحُسنِه وجماله، وكتابٌ كريمٌ: مَرضيٌّ في معانيه وفوائده، ونباتٌ كريمٌ: مرضيٌّ فيما يتعلَّق به مِنَ المنافع، قال تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشُّعراء: 7]، وقِس على ذلك الإنسانَ، والحيوانَ، والمكانَ"[2].

دلالةُ عطف قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ على سابقه:

رفضوا الانقيادَ لأوامـــر الـلـه؛ فحُرموا كلَّ مُتع الحياة

العطف في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ هو مِن عطف العامِّ على الخاصِّ[3]، "لأنَّ هذه الآية الثّالثة لم تتكلَّم عن شيء يُطعَم كما تكلَّمتِ الأولى والثّانية، وإنَّما هي وصفٌ عامٌّ لكلِّ الذين يعيشون على أرض مصرَ في ذلك الوقت، يستوي في ذلك أصحابُ القصور والجنّات التي فيها العيون، وأصحابُ الزُّروع الذين يُقيمون في مزارعهم المبسوطة الشّاسعة؛ الكلُّ متنعِّم وإن تفاوتت درجات التَّنعُّم، المهمُّ أنَّه ليس هناك على أرض الكنانة مَن يعيش في ذلك الزَّمن تحت خطِّ الفقر"[4]! فكفَروا بأنعُم الله، فحُرِموا الحياةَ ومُتَعَها!

نكتةُ تنكير (نَعْمَةٍ) ودلالةُ إفرادها:

التَّنكيرُ للتَّعظيم أو للتَّكثير، لبيان ما كانوا فيه مِنَ النَّعيم الكثير

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّها مَسوقةٌ في معرض المدح مرادًا بها علوُّ الشَّأن؛ أي: ونعمةٌ عظيمةٌ جسيمة، ويصحُّ أن يكون المراد بالتَّنكير: التَّكثيرَ؛ أي: وتنعُّمًا كثيرةً صورُه وأشكالُه، ويؤيِّده ﴿كَمْ تَرَكُواْ﴾.

"والنَّعمة - بفتح النّون -: اسم للتَّنعُّم مصوغٌ على زِنَةِ المرَّة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 674.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 126، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 674.
(4) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.

وليس المراد به المرَّةَ، بل مطلقُ المصدر باعتبار أنَّ مجموع أحوالِ النَّعيم صار كالشَّيء الواحد، وهو أبلغُ وأجمَعُ في تصوير معنى المصدر، وهذا هو المناسبُ لفعل ﴿تَرَكُواْ﴾؛ لأنَّ المتروكَ هو أشخاصُ الأمور التي يُنعَّمُ بها وليس المتروكَ، وهو المعنى المصدريُّ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي في قوله: ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾:

عاشوا حياتَهم في اغترارٍ حتى جاءهم الهلاكُ بغتةً منَ المنتقِم الجبّار

يفيد التَّعبيرُ بالماضي الدَّلالةَ على التَّحقُّق والتَّوكيد، وإذا كان هذا الفعلُ هو فعلَ الكون فإنَّ دلالته على التَّحقُّق تكون آكدَ من غيره؛ ذلك أنَّه مختصٌّ بالجملة الاسميَّة فهو مِن نواسخها، والجملةُ الاسميَّة تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام.

فقوله تعالى: "﴿كَانُواْ فِيهَا﴾؛ أي: دائمًا ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: فعلُهم في عَيْشهم فعلُ المترفِّه لا فعلُ مَن يُضطرُّ إلى إقامة نفسه"[2].

معنى الظَّرفيَّة في ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾:

كانوا في النَّعيم مغمورين، فأصبحوا بكفرهم مِنَ المُهلَكين

الأصلُ في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّةً، حقيقيَّةً أو مجازيَّةً[3].

وهو في هذا الموضع للظَّرفيَّة المجازيَّة، كأنَّه جعل (النَّعمة) مكانًا أو ظرفًا يحوي ما فيه؛ "أي: كانوا مَغمورين في النِّعمة لاعبينَ في تلك النِّعمة"[4]، وكانت النِّعم محيطةً بهم إحاطةَ الحصن؛ ممّا يدلُّ على أنَّهم كانوا يعيشون في خيراتٍ كثيرةٍ، ونعمةٍ عظيمةٍ وفيرة.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على الخبر:

التَّقديمُ للتَّشويق والاهتمام؛ للتَّدليل على استحقاق الهلاكِ والانتقام

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على خبر النّاسخ ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويق للمؤخَّر، ولبيان عِظَم قدرِ هذه النَّعمة التي كانوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 28.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.

مغمورين فيها، وعِظَم قدْر الحسرة عليها بعد أن سُلِبوها، وقد أفاد هذا التَّقديمُ - إضافةً إلى ذلك - محسِّنَ رِعاية الفاصلة.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مادَّةً وصيغة:

كانوا في النَّعمة قارِّين متنَعِّمين، لا مضطرِّين ولا مقهورين

أصلُ الفكه يدلُّ على طِيبٍ واستطابة، فمِن ذلك يُقال: الرَّجُل الفَكِه؛ أي: الطَّيِّب النَّفْس، ومِنَ الباب: الفاكهةُ؛ لأنَّها تُستَطاب وتُستَطرف، ومِنه أيضًا: المُفاكَهَة، وهي المازَحَة وما يُستَحلَى مِن كلام[1].

"وجملة ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ فاصلةٌ جامعةٌ للآيات التي هي جملةٌ واحدةٌ مِن أوَّل ﴿كَمْ تَرَكُواْ﴾، ومعنى ﴿فَٰكِهِينَ﴾: فَرِحينَ مغتَبِطينَ متفكِّهين؛ لأنَّها تصف أحوالًا نفسيَّةً كثيرةً كلُّها مِن باب المسرَّة والغبطة وافتقادِ الأحزان وما يجلبُ الأحزانَ، والذي دمَّر كلَّ ذلك غرورُ وصَلَفُ وأطماعُ فرعونَ ونفاقُ مَن حولَه"[2]!

والتَّعبيرُ باسم الفاعل يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام دلالةً على ما كانوا فيه مِنَ الاستقرار.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾:

ثراءُ الدَّلالات بتعدُّد القراءات والتَّأويلات

قرأ أبو جعفر: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالقصر[3]، وقرأ الجمهور: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ - بالألف - ومعناها:

ناعمين، والفاكِهُ: الطَّيِّب النَّفْس، أو يكون بمعنى: أصحاب فاكهة؛ كلابِنٍ وتامِرٍ (مِن اللَّبَن والتَّمر)، والمعنى على قراءة أبي جعفر قريبٌ مِن هذا؛ لأنَّ الفكهَ يُستَعمَل كثيرًا في المستخِفِّ المستهزِئ، فكأنَّه هنا يقول: كانوا في هذه النَّعمة مستخِفِّين بشُكرها والمعرفةِ بقدرها[4].

وعليه، فالقراءتان تؤدِّيان معنيَين متآزرَين، هُما معًا كالمعنى الواحد،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فكه).
(2) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.
(3) البنا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 499.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 73.

فهؤلاء القومُ كانوا متنعِّمين مترفِّهين خائضين في أسباب نعمةٍ عظيمةٍ لم يؤدّوا شُكرَها، ولم يقوموا بحقِّها، بل استخفّوا بها، فاستحقّوا الهلاك!

معنى التَّشبيه ودلالتُه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تشبيهٌ للخروج بالخروج؛ تحذيرًا لمَن كان في لجَجِ العصيان يموج

يجوز أن تكون الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في حيِّز النَّصب، على أنَّ (ذلكَ): إشارةٌ إلى مصدرٍ يدلُّ عليه الفعل ﴿تَرَكُوا۟﴾؛ وعلى هذا فالمعنى: مِثلَ ذلك السَّلْبِ سلبناهُم إيّاها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، أو: مِثلَ ذلكَ الإخراجِ أخرجناهُم منها، أو: انتقمنا انتقامًا كذلك، ويجوز أن معطوفًا على ﴿تَرَكُوا۟﴾، ويكون الوقف على: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ والجملة معترضةٌ بين الجملة اللّاحقة والسّابقة المتعاطفتَيْن[1].

وكأنَّ الأمر يؤولُ إلى تشبيه الإخراج بالإخراج، ولا يكونُ هذا إلا لقصد اللَّفت إلى العبرة في هذا الإخراج وأنَّ الله تعالى أخرج الظّالم المتغطرسَ فرعونَ، وأهلكه وأهلكَ معه حُرّاسَهُ وجنودَه وأذنابَه مِنَ المنافقين والموالين الذين كانوا يُزيِّنون له ويُزيِّن لهم، وهذا إخراجٌ لو أردت تشبيهَه بشيءٍ تُلحِقُه به وتزيدُه به إيضاحًا وبيانًا فلن تجد أتمَّ في معناه منه؛ فلذلك تشبِّهه بنفسه تعظيمًا وتفخيمًا[2].

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عُبِّر بالبعد لإفادة التَّعظيم، وأنَّ إهلاك القوم أمرٌ في الموعظة عظيمٌ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لإفادة التَّعظيم، فقد كان إهلاك فرعونَ وجندِه بالطَّريقة التي ذكرَها الله تعالى في القرآن أمرًا عظيمًا، وكان تركُهم للجنّات والعيون والزُّروع والمقام الكريم مِن ورائهم أمرًا عظيمًا، وإيراثُ غيرهم إيّاها أمرًا عظيمًا كذلك، وليس بعظيمٍ على الله تعالى، حاشاه، بل هو عظيمٌ في باب العبرة والعِظة!

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 276، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 660، وابن عادل، اللباب: 17/ 322، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 62 - 63، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 675.

(2) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 621.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾:

مَن عادى أولياءَ ذي الملكوت والسُّلطان؛ عوقب بالنَّكال والخسران

الواو عاطفةٌ لفعل (أوْرَثْناها) على سابقه، ويتحدَّد المعطوفُ عليه بناءً على توجيه معنى الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما تقدَّم بيانه، فلو جرينا على توجيه النَّصب في الكاف فإنَّ (أوْرَثْناها) معطوفٌ على الفعل المقدَّر النّاصب للكاف، والمعنى: مِثلَ ذلك الإخراجِ أخرجناهم، أو: مِثلَ ذلك الإهلاكِ أهلكناهم، أو: انتقمنا انتقامًا كذلك، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.تكون الكاف في حيِّز الرَّفعِ على الخبريَّة؛ أي: الأمرُ كذلك، فحينئذٍ يكونُ (أوْرَثْناها)

ولو جرينا على توجيه الرَّفع في الكاف فإنَّ (أوْرَثْناها) معطوفٌ على ﴿تَرَكُواْ﴾، وجملةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ معترضةٌ بينهما، والمعنى: ﴿تَرَكُواْ﴾ الجنّاتِ والعيونَ والزُّروعَ - الأمرُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ - ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[1].

وعلى الوجه الأوَّل يكون الإيراثُ مترتِّبًا على الإخراج والإهلاك، وكلاهُما مسندٌ إلى الله تعالى: (أخرجناهم منها وأهلكناهم وأورثناها قومًا آخرين)، وعلى الوجه الثّاني يكون الإيراثُ معطوفًا على تركهم للجنّات والعيون ... إلخ: (﴿تَرَكُواْ﴾... ، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾).

توجيهُ عوْد الضَّمير في (أوْرَثْناها):

عــودُ الضَّـمـير إلى ما كانوا فيه مترَفين؛ إظهارًا للغلبة والتَّمكين

بحسب قواعدِ اللُّغة فإنَّ ضمير الغائب في قوله تعالى: (أوْرَثْناها) يعودُ على أقربِ مذكورٍ، وهو: الجنّاتُ والعيون، والزُّروعُ والمقامُ الكريم، والنَّعمةُ التي كان قوم فرعونَ فيها فاكهين.

وقد سمَّى الله تعالى انتقالَها مِن تصرُّف قومٍ إلى قومٍ آخرين: وراثةً؛ مِن حيث كانت أشياءَ أُناسٍ وصلت إلى قومٍ آخرين مِن بعد موت الأوَّلين، وهذه حقيقةُ الميراث في اللُّغة[2].

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 9/ 623 - 624، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 172.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 73.

ثمَّ اختُلِف في هؤلاء الآخرين، فذهبت طائفةٌ إلى أنَّهم مَن مَلَك مصرَ بعد القِبط، وذهبت طائفة إلى أنَّهم هم بنو إسرائيل، ودليلُهم أنَّ هذا هو ظاهرُ القرآن كما ورد في نظيرَةِ هذه الآية في سورة الشُّعراء: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشُّعراء: 59]، فهذه الآيةُ صريحةٌ في توريث بنى إسرائيلَ للجنّات والعيون التي خلَّفها فرعونُ وقومُه بعد غرقِهم، بمعنى أنَّهم عادوا إلى مصرَ بعد غرقِ فرعونَ ومَن معه كما ذكره بعض المفسِّرين، ولكنَّ عودتهم كانت لفترةٍ معيَّنة، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدَّسة التي دعاهم نبيُّ الله موسى عليه السلام لدخولها[1].

وقد أُشكِل على هذا القول أنَّه لم يُروَ في التّاريخ أنَّ بني إسرائيل رجعوا إلى مصرَ في شيء مِن ذلك الزَّمان ولا مَلَكوها قطُّ، بل ورد في القرآن أنَّهم كُتِب عليهم التِّيه أربعين سنة في أرض سيناء عقوبةً لهم لمّا أُمِروا بدخول الأرض المقدَّسة بيتِ المقدس فجَبُنوا، وخافوا العماليق[2].

فبَقِيَ سؤالٌ، وهو: كيف ورِث بنو إسرائيل هذه الأشياءَ كما نصَّت عليه آية سورة الشُّعراء إن لم يكونوا عادوا إلى مصر؟

والجواب: أنَّهم لم يرثوا شخوصَها وذواتَها، بل ورِثوا أشباهَها وأجناسَها وأنواعَها في بلاد الشّام، وهذا مِن باب: (عندي درهمٌ ونصفُه)؛ أي: ونصفُ درهم مِن جنس هذا الدِّرهم، فليس المرادُ خصوصَ ما تركوه، بل نوعَه وما يُشبهه[3].

وعليه فالضَّمير في (أَوۡرَثۡنَاها) عائدٌ إلى أجناس الأشياءِ المعدودة؛ أي: أعطيناهم مِن جنس الجَنّات والعيون والكنوز مثلَ ما كان لفرعونَ وقومِه مِن جنّاتٍ وعيون وكنوز الكنعانيِّين حتَّى سلَّط الله عليهم بني إسرائيل، فغلبوهم على أرض فلسطين والشّام[4].

نكتةُ إسناد الفعل إلى نون العَظَمَة:

أُسنِد الفعل ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ إلى نون العظمة تنبيهًا على أنَّ تحويل حالِ بني إسرائيل مِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 253، والآلوسي، روح المعاني 13/ 122، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 127.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 73، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 199.
(3) الآلوسي، روح المعاني 13/ 122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.

الله العظيمُ لا يُخلفُ الميعاد، ويورِث الأرضَ لمَن شاء مِنَ العباد

التَّعبيرُ بالإيراث؛ لسرعة التَّملُّك والانبعاث

الاستعباد إلى وراثة هذا النَّعيم وتملُّكِه إنَّما هو مِن آثار عظمة هذا الرَّبِّ الجليل القادر القهّار، قاصمِ الجبّارين، ونصيرِ المستضعَفين، الذي لا يُخلف الميعاد، وبيده أقدارُ العباد.

دلالةُ التَّعبير بالإيراث مادَّةً وصيغةً:

أصلُ الإرث: صيرورةُ شيءٍ ما كان لقومٍ إلى آخرين[1]، أو هو: حَوزُ الإنسانِ ما كان يملِكُه آخرُ بعد موتِ هذا الآخرِ[2]، فالوراثةُ والإرثُ: انتقالُ قُنيةٍ إليك عن غيرك مِن غير عَقدٍ، ولا ما يجري مجرى العقد[3].

وقد أوثِر التَّعبيرُ بالإيراث للدَّلالة على التَّملُّك في قوله تعالى: (أَوْرَثْناها)؛ لأنَّ الوارثين لم يتملَّكوا تلك الجَنّاتِ والعيونَ والكنوزَ بالفعل بمجرَّد خروجِ فرعونَ وجنودِه منها، بل مُكِّنت لهم، فالمعنى: مكَّنّا تلك الجَنّاتِ والعيونَ والكنوزَ والمقامَ الكريمَ إيّاهم على طريقة مال المورِّث للوارث؛ لأنَّ الوارث ينتَقِل المالُ لملكه بمجرَّد موتِ مورِّثه، لا بقبضِه للمال بالفعل، فشابهَت صورةَ التَّمكُّن للجَنّات والعيون والكنوز بمجرَّد إخراج فرعونَ وجنودِه منها، دون تملُّكٍ لها بالفعل، بصورة تمكِّنُ الوارثَ مِن مال مورِّثه بمُجَرَّد موته، وإن لم تكن يدُه على ذلك المال بالفعل؛ كأنَّهم ملكوها مِن حين خروجِ أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسَلَّموها[4].

وقيل: المراد مِن إيراثها إيّاهم: تمكينُهم مِنَ التَّصرُّف فيها، ولا يتوقَّف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أوَّلًا[5].

وقد عُبِّر فيها بالماضي مسندًا إلى نون العظمة؛ لإفادة معنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورث).
(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).
(3) الراغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ورث).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.

التَّحقُّق مع بيان عظمة الفعل، وأنَّه لا يَقدِر عليه إلّا عظيم، وهو الله ﷻ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَوْمًا﴾ ودلالةُ وصفِهِ بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿قَوْمًا﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّهم كانوا ذوي قوَّةٍ في القِيام على ما يحاولونه[1].

أصرّوا أن يكونوا متكبِّرين؛ فانتزع سبحانه ملكَهُم، وأورثهُ قومًا آخرين

وقد يكون التَّنكيرُ لعدم إرادة التَّعيين، بدلالة وصفِه بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾، فليس المراد تعيينَ الورثة، بل المراد بيانُ انتقال الملك مِن أيدي المهلَكين إلى غيرهم بغضِّ النَّظر عن تحديد هؤلاءِ الورثةِ المنقولِ إليهم؛ فمجرَّدُ انتقال الملك يوحي بالحسرة على المنقول منهم، والاعتبارِ بحالهم.

ووصفَ الذين ورِثوهُم بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾؛ لأنَّهم ليسوا منهم في شيءٍ مِن قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل - على أحد الأقوال -: كانوا متسخِّرين مستَعْبَدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم مُلْكَهم وديارَهم[2].

وقد يكون الوارثون هم أبناءَ أولئك المغرَقين، وسُمّوا ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ لأنَّ آباءَهم كانوا على حالٍ مِنَ الضَّلال، بحيثُ لا يكادُ يجمعُهم بأبنائهم أيُّ وجهٍ مِن وجوه الشَّبه، فمهما ورثَ أبناؤهم مِن بعدهم مِنَ الكفر والضَّلال، فإنَّ المسافة بينهم وبين أبنائهم ستظلُّ دائمًا بعيدةً؛ لأنَّ آباءَهم قد بلغوا في هذا الضَّلال غايةً لا يبلغها أحد[3].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ للتَّفريع على قوله سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ إلى قوله ﷻ:

الفاء للتَّفريع؛ للزِّيادة مِنَ التَّوبيخ والتَّقريع

(1) الخطيب الشربيني، السِّراج المنير: 3/ 585.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 199.

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، فإنَّ ذلك كلَّه يتضمَّن أنَّهم هلكوا وانقرضوا؛ أي: فما كان مَهْلِكُهُم إلّا كَمَهْلِكِ غيرِهم، ولم يكن حدَثًا عظيمًا كما كانوا يحسبون ويحسبُ قومُهم، وهذا الكلام مَسوقٌ مساقَ التَّحقير لهم[1].

سرُّ إيثارِ النَّفي بـ﴿فَمَا بَكَتْ﴾:

هـلاكُ أهـل الإجـرام لا يؤثِّر في شيءٍ مِـنَ الأجرام

أوثِرَ النَّفيُ بـ﴿فَمَا بَكَتْ﴾ دون (لم تبكِ) مِن حيث إنَّ الماضي المنفيَّ بـ(ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريبِ مِنَ الحال، وأمّا (لم) فليست مقيَّدةً بزمنٍ مِن أزمنة المضيِّ، وهذا هو المناسبُ لسياق الآيات هنا.

كما أنَّ (ما) آكدُ في النَّفي مِن (لم)؛ وذلك أنَّها تقعُ جوابًا للقَسَم بخلاف (لم).

فكأنَّ سائلًا سأل: أما بَكاهُم أحد؟! ألم تَبكِهم منازلُهم التي فارقوها؟ فيأتيه الجواب: بـ(لا)، فيحصلُ منه نوعُ تردُّدٍ أو شكٍّ لدى السّائل، فيؤكَّدُ له الكلامُ بالقَسَم: (واللّهِ ما بكت عليهم السَّماء ولا الأرض!)، فكثيرًا ما تكون (ما) ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ.

هذا ... وثَمَّ فرقٌ بين دخول (ما) على الماضي، ودخول (لم) على المضارع مِن ناحيةٍ أخرى، وهي أنَّ الماضيَ يدلُّ على أنَّ الأمر قد انقضى، وأمّا المضارعَ فإنَّه قد يدلُّ على التَّكرار والتَّجدُّد والتَّطاول، فقولُنا: (كتب) يدلُّ على انتهاء الحدثِ وانقضائه، وقولُنا (يكتب) يدلُّ على تجدُّد الحدثِ واستمراره، فإذا دَخَلَت (ما) على الماضي دلَّ على انتفاء الحدثِ بصيغةِ المُضيِّ، وإذا دخلت (لم) على المضارع دلَّ على انتفاءِ الحدثِ في المُضيِّ، لكن بصيغةِ التَّجدُّد والاستمرار؛ فدخولُ (لم) يدلُّ على أنَّ الحدثَ لم يحصل في الماضي على تطاول المدَّة واستمرارها[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 303.
(2) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 193 - 195.

وهذا الوجه الأخير أنسبُ في باب التَّعجُّب ممَّن لم تبكِه السَّماءُ ولا الأرضُ على طول المدَّة واستمرارها إذا كان ممَّن يستحقُّ أن يُرثَى، أمّا مع قوم فرعونَ فلا عجَبَ في أنَّ السَّماء والأرضَ لم تبكياهُم، فاكتُفِي فيه بنفي الفعل في زمن المُضيِّ فقط.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾:

الأصلُ في معنى (على) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي منَ العُلوِّ[1].

مِن طاعة السَّماء والأرض لربِّ العالمين؛ أن لا تبكيا على القوم الكافرين

وفي البكاء على الميِّت يقال: بكيتُه وبكيتُ عليه بمعنًى واحد: إذا بكيت عليه[2].

وهنا يُتصوَّر الميِّتُ صريعًا ممدَّدًا على فراشه أو دفينًا في قبره، والحيُّ جالسًا في مستوًى أعلى منه يبكي عليه، فكأنَّه يجلِّله بدموعه ويصبُّها فوقه، ويغمرُه بها، فمعنى الاستعلاء ملحوظٌ فيه.

وهو أيضًا ملحوظٌ في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فالسَّماءُ هي كلُّ ما علا، وأمّا الأرض فإنَّهم ماتوا غرقًا في البحر، فكانت اليابسةُ كذلك فوقهم.

بلاغةُ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾:

هانت مصيبتُهم على جميع الأشياء؛ فما بكتهُم أرضٌ ولا سماء

في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ؛ حيث شبَّه السَّماء والأرض بمَن يصحُّ منه الاكتراث، ثمَّ حذفَ المشبَّه به، وهو مَن يصحُّ منه الاكتراثُ، واستعار له شيئًا مِن لوازمه، وهو البُكاء، وجعله بعضُهم مجازًا مرسلًا عنِ الاكتراث بهلاك الهالك، والعلاقةُ السَّببيَّةُ، حيث ذكرَ المسبَّب، وأراد السَّبب، فإنَّ الاكتراثَ المذكورَ سببٌ يؤدِّي إلى البقاء عادةً[3].

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122، والدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 676.

ويصحُّ أن تكون مكنيَّةً بلا تخييل، وإجراؤها يكون بتشبيه السَّماء والأرض بالإنسان الذي يبكي، ثمَّ حُذِف المشبَّهُ به، وأُتِي بشيءٍ مِن لوازمه، وهو البكاءُ على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

وقد كثُر في التَّعظيم لمهلكِ الشَّخص أن يُقال: بكت عليه السَّماءُ والأرض، وبكَتهُ الرِّيحُ ونحوُ ذلك، وقد كانت العرب تقول عند موت السَّيِّد منهم: بكت له السَّماء والأرض؛ أي: عمَّت مصيبتُه الأشياءَ حتَّى بكته الأرضُ والسَّماء، والرِّيحُ والبرق[1]؛ فأخبر سبحانه محذِّرًا قريشًا مِن هذه العاقبة الوخيمة أنَّ هؤلاء لم يتأثَّر بموتهم أحدٌ، ولم يحزن على فقدهم أحدٌ؛ فهم أهوَن مِن أن تبكيَهم أرضٌ أو أن تحزنَ لهلاكهم سماء!

معنى التَّعريفِ في ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، ونكتةُ إفرادِهما:

يصحُّ أن يكون التَّعريفُ في ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ للعهد؛ حيثُ المقصودُ بالسَّماء السَّقفُ الذي يظلِّل الأرض، والمقصودُ بالأرض المهادُ الذي يعيش فوقه الخلقُ، فتلك السَّماءُ التي أظلَّتهم، والأرضُ التي أقلَّتهم لم تبكِ واحدةٌ منهما عليهم حزنًا على فراقهم، فلم يُرفَع إلى السَّماء عملٌ لهم صالح، ولم تشهد بقعةٌ مِنَ الأرض على خير منهم.

لم تبكِ الهالكين أرضٌ ولا سماء، فقد كانوا لهما بمنزلة الدّاء

ويصحُّ أن يكون التَّعريفُ فيهما للجنس، فكأنَّ كلَّ السَّماوات وكلَّ الأرضين لم تبكِ على هؤلاء الهالكين واحدةٌ منها! فما كان أهونَهم!

نكتةُ عطف الأرض على السَّماء بالواو مع إسقاط حرف النَّفي:

في عطف الأرض على السَّماء بيانٌ لشمول السَّخطِ على هؤلاء المهلَكين فيما أحاط بهم مِنَ الكون، مِن فوقهم ومِن تحت أرجلهم!

وعدمُ تَكرارِ حرف النَّفي أفاد اتِّحادَ سخط السَّماء والأرض

ذهبوا كما يذهبُ الوباء، يتنفَّس النّاس بعده أنفاسَ العافية والرَّجاء

(1) القرطبي: 16/ 139، والآلوسي، روح المعاني 13/ 122.

وعدمِ اكتراثهما بهؤلاء المبعَدين، لأنَّه لو أُعيدَ حرفُ النَّفي فقيل: (ولا الأرض) لربَّما توُهِّم أنَّ للسَّماء سخطًا مختلفًا عن سخط الأرض، وأنَّ كلًّا منهما استقلَّت بسخطها، لكن لمّا عُطِفت الأرضُ على السَّماء مع عدم تَكرار حرف النَّفي أفاد ذلك اتِّحادَ السَّخَطَين وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ لا يتبعَّض.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المخلوقاتِ العظيمةَ تسبِّح الله تعالى وتعظِّمُه بقدر ما هي عليه مِنَ العظمة، ومِن تعظيمها لربِّها وخالقِها أنَّها تلينُ للطّائعين، وتمورُ بالعاصين؛ غضبًا لانتهاك حرُمات ربِّ العالمين!

نكتةُ عطف قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ على سابقه:

عُطف قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ على سابقه؛ لأنَّه كالتَّتميم لعدم الاكتراث بالمذكورين؛ ذلك أنَّ العادة جرت بأنَّ مَن قُضِي عليه بالموت قد يُستَمهَلُ في بعض الأوقات لمثل وصيَّةٍ وقضاءِ حاجةٍ قبل أن يُقتَل، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مخبرًا أنَّ قوم فرعونَ كانوا دون ذلك، والمقصودُ مِن هذا تحذيرُ مَن بَعدَهم مِنَ القرشيِّين الذين كفروا بالنَّبيِّ ﷺ وآذَوه[1].

وإذا لـم يبكِ السَّكنُ فما ظنُّك بالسّاكن؟!

وحاصلُ المعنى: "أنَّ هؤلاء المغرَقين الذين كانوا ملءَ السَّمع والبصر، وكانوا يُذِلّونَ غيرَهم، وكانوا يملكون الجنّاتِ والعيونَ، هؤلاء الطُّغاةُ لم يحزن لهلاكهم أحدٌ مِن أهل السَّماوات أو أهل الأرض، ولم يؤخَّر عذابُهم لوقتٍ آخرَ في الدُّنيا أو في الآخرة، بل نزل بهم الغرقُ والدَّمارُ بدون تأخيرٍ أو تسويف.

فالمقصودُ مِنَ الآية الكريمة بيانُ هَوانِ منزلة هؤلاء المغرَقين، وتفاهةِ شأنهم، وعدمِ أسفِ أحدٍ على غرقهم؛ لأنَّهم كانوا ممقوتين مِن كلِّ عاقل"[2]!

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 30.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 128.

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ دون (وما أُنظِروا):

التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ يفيد المبالغةَ في تأكيد نفي الإنظارِ عنهم.

التَّعبيرُ بالكون الماضي لإفادة الاستحقاق، وبيانِ ما تلبَّسوا به مِنَ الشِّقاق

وقد زاد هذا التَّأكيدَ رسوخًا التَّعبيرُ باسم المفعول ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ فقد كانوا عريقين في فعلِ ما اسْتَحقّوا به المعاجلةَ بالعقوبة، وفيه كذلك دلالةٌ على أنَّ تلك العقوبةَ قد كُتِبت لهم في اللَّوح المحفوظ، وأنَّهم - في مدَّة تنعُّمهم وإن طالت - لم يكونوا مُعامَلين معامَلةَ المُنظَر المُمهَل حتَّى يظنَّ ظانٌّ أنَّ عقوبتهم قد تأخَّرت! فبقاءٌ في نعيمٍ يعقبُه خلود في جحيمٍ لا يعدُّ بقاءً وإن طال!

وليس في التَّعبير بـ(ما أُنظِروا) مِنَ التَّأكيد وبيانِ الاستحقاقِ للعقاب ما في ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

نكتةُ حذف معمول الإنظار:

حُذف معمولُ الإنظار في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ لأنَّه مفهومٌ مِن سياق الكلام، إذِ المعنى: وما كان فرعونُ وقومُه لمّا جاء وقتُ هلاكهم مُمْهَلين ولا مؤجَّلين إلى وقتٍ آخر أو إلى يوم القيامة، بل عُجِّل لهم عذابُ الاستئصال في الدُّنيا لشدَّة جُرمهم[1].

حسَنٌ حذفُ ما يُعلَم مِنَ المقام، وما دلَّ عليه سياقُ الكلام

وقد أفاد هذا الحذفُ أيضًا محسِّنَ الرِّعاية على الفاصلة، فكان حُسنًا على حُسن!

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّركُ والتَّخليفُ:

الفرقُ بينهما أنَّ التَّخليفَ هو تركُ الشَّيء في الخَلف[2]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ التَّركَ أعَمُّ منه، ولمّا كان ما تركه فرعونُ وجنودُه مِنَ

التَّركُ أعَمُّ مِنَ التَّخليف

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 123، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 9/ 857.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلف).

النَّعيم ليس خلفَهم فقط بل محيطًا بهم من كلِّ جانب، أوثِرَ في هذه الآية لفظُ التَّرك دون التَّخليف.

ويُضاف إلى ما سبقَ أنَّ تخليفَ الشَّيء يوحي بأنَّ الشَّخصَ تركَهُ خَلْفَه ليرثَه مَن يُريدهم أن يَرثوه؛ فأوثِرَ في هذه الآية لفظُ التَّرك الذي يكون بالقَهْر والاضطرار[1]، وأوْرَثَ اللّهُ تلك النِّعمَ بني إسرائيل؛ قال اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، وهم ليسوا من فرعونَ وجنودِه في شيءٍ من قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وكانوا مستعبَدين في أيديهم، فأهلكَ اللّهُ فرعونَ وجنودَه، وأورثَهم مُلكَهم وديارَهم[2].

الجنّاتُ والحدائقُ والبساتين والحوائط:

في الجَنّات سَترٌ بكثافة أشجارها، وللحديقة حائطٌ، وفي البُستان أخذٌ رائحة

الفرق بين الثَّلاثة أنَّ الجَنّاتِ هي الحدائقُ ذاتُ الشَّجر والنَّخيل والعِنَب، وُسمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تستر بأشجارها وورقها ما تحتها منَ الأرض لكثافتهما؛ فهي مأخوذةٌ منَ الجَنِّ: وهو السَّتر[3].

أمّا الحديقة فهي قطعةُ الأرض المستديرةُ ذاتُ النَّخل والماء والحائط، وسُمِّيَت بذلك تشبيهًا بحدَقة العَين في الهيئةِ وجَمعِها الماءَ[4]، وكلُّ بُستانٍ كان عليه حائطٌ فهو حديقة، وما لَم يكن عليه حائط لَم يُقَلْ له حديقة[5]؛ فإنَّ جَذرَ الكلمة أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّيء يحيط بشيء، يقال: حدق القومُ بالرَّجلِ وأحدَقوا به[6].

وأمّا البستان فهو لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ[7]، ولَم يَرِد لفظُ البُستان في القرآن الكريم[8]، وهو معَرَّب (بوستان)؛ فـ (بو) بمعنى:

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ترك).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 276.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، التاج: (جنن)، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 281، و282.
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدق).
(5) ابن منظور، اللسان: (حدق).
(6) ابن فارس، المقاييس: (حدق).
(7) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 501، والزبيدي، التاج: (بستن).
(8) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 281، و282.

الرائحة، و(سِتان) بالكسر: الجاذبُ[1]، ومعناه بحسب الأصل: آخِذُ الرّائحة[2]؛ فيتبيَّن من ذلك أنَّ الحديقةَ سُمِّيَت بالبستان لأنَّها أرضٌ جاذِبةٌ رائحةَ الأشجار أو آخِذتُها.

المقامُ والمنزِل والمستقرّ:

فـي المـقـام انـتـصـابٌ، وفي المَـنـزِل هُـبـوطٌ، وفي المستَقَرّ ثَبات

الفرقُ بين الثَّلاثة أنَّ المقامَ مأخوذٌ مِن: قام يقوم؛ أي: انتصَبَ[3]، والمعنى المحوريُّ لجذر المقام: انتصابُ الشَّيء إلى أعلى ثابتًا؛ كقامةِ الإنسان[4].

أمّا المَنزِل فجذرُهُ أصلٌ يدلُّ على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه[5]، والنُّزولُ في الأصل: انحطاطٌ من علوٍّ[6]؛ يقال: نزلَ عن دابَّته، ونزل في مكان كذا: حطَّ رَحْلَه فيه[7]، وأمّا المستقَرُّ ففيه معنى الثَّبات[8]؛ يقال: قرَّ في مكانه يَقَرُّ قَرارًا، إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا[9].

(1) الزبيدي، التاج: (بستن).
(2) الزبيدي، التاج: (بست).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (قوم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).
(5) ابن فارس، المقاييس: (نزل).
(6) الراغب، المفردات: (نزل).
(7) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (نزل).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرر).
(9) الراغب، المفردات: (قرر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"